من ذكريات بغـــداد

للأستاذ علي الطنطاوي

ما الذي هاج في نفسي هذه العشية ذكر بغداد ، ونشر أمام عيني ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها ؟ ما الذي رجعني إلى تلك الليالي حتى كأني — لفرط ما تشوقت إليها ، وأوغلت في استذكارها — أعيش فيها ؟ أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي إليك ، فلم أنسك إذ أنا في بلدي الحبيب ، ولم أزل أحن إليك وأشتاقك ؟

بغداد ... يا بغداد ، عليك مني سلام الود والحب والوفاء ، والمعظم على الصليخ على الكرادة على الكرخ سلام الفؤاد يشوق الولهان ، على لياليناً «بين الرصافة والجسر» . ما كان أحلى تلك الليالي ! لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة وأحن إلى الوطن ، وسرت في وطني أحن إلى تلك الغربة ولياليها ، وما ظلمني موطني ما أنكرني ، وما كنت لأذمه صادقا فكيف أذمه بما ليس فيه ، ولكنها هي الدعة ، ملتها واجتويتها : إني أشكو ألم الراحة ، فأعطوني به راحة الألم ، ذلك الألم العبقري الذي يفتح القلوب بآيات الشعر ، فاني منذ فقدته لم أعد أحس بأنني ذو قلب !

على الرستمية ... ألا تزال الرستمية جنة من جنان الأرض ، حافلة بالعاشقين وبالحور العين ، أم طاف بها طائف من هذه الحرب فجفت خمائلها وهجرها قاصدوها ؟ على الصالحية ... بروحي صالحية دمشق وصالحية بغداد . على (قهوة البطار) ، على ظبائها على جآذرها ألف سلام .

على الجسر ... ياجسر بغداد ، كم جمعت وفرقت ، ماذا رأيت وسمعت ؟ كم وصلت بين قلوب وقطعت ، أتت الصلة بين ماض لنا كان أعز من النجم وأسمى ، وآت لنا سيكون أسمى من النجم وأعز . ياجسر بغداد ، يا مربع الحب والأدب والمجد ، يا من كنت سرة الأرض ، وكنت لي مسرة القلب ، عليك مني ألف سلام .

يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتي ، وخلفت فيها بقايا من فؤادي ، ماذا صنعت بفؤادي وحياتي يا ربوع ؟ !

* * *

ويادارنا في (الأعظمية) من حل فيك بعدنا يا دار ؟ وهل صوّح لبُعدنا زهرك أم ضحكت من بعدنا الأزهار ؟ وهل حفظت آثارنا أم لقد طمست من بعدنا الآثار ؟ لقد كنت أنت مستقرّي ومثواي ، وكان إليك مفرّي من دنياي ؛ وكنت شاهدة أفراحي كلها وأتراحي ، وكنت مستودع أسراري وأخباري ، كتمتها عن الناس إلا عنك ، فهل كتمتْ سرّي هذه الجدران ؟ هل سترت ما رأت من نقائصي التي أخفيتها عن الأصدقاء والإخوان ؟

ما هذه الدنيا يا ناس ؟ هذه الدار التي كنت أفرّ إليها من رحب الحياة ، وزحمة المجتمع ، فأغلق بابها عليّ ، وأخلو فيها إلى نفسي ، فأحس أنها جزء مني ، وأنها لي وحدي ، صارت غريبة عني ، تنكرني وتجهلني كأني لست منها وليست مني وصارت لغيري ، فإذا ما جئت أطرق بابها ، رددت عنها ، أو قبلت فيها ضيفاً غريباً لا أرى إلا ما يراه الضيف ، ولا ألبث إلا ما يلبث ... لا يا سكانها ؛ ما أنا بالضيف الغريب ، إنها كانت داري ، إن لي فيها حقاً ، لي فيها ذكريات ؛ فيها من حياتي ، من أنفاسي ، من روحي !

* * *

بحاثهم ، ذلك لأن أسس الفكرة العربية وفلسفتها ستأخذ مجهود عدد كبير من المفكرين والباحثين ، ولكن أثرها سيكون عميقاً في مصر ، إذ ستعيد حتما للشعب المصري إرادته وشخصيته وتلقنه سر بعثه الحي . وسنرى كيف أن الكثير من مشاكلنا الخلقية والقومية والتي تبدو لنا مستعصية الحل ، سيسهل علينا مواجهتها في ضوء الأسس الاجتماعية التي تخاطب الوجدان والفكر ، وتحرك القلوب والمشاعر .

إن الفلسفة التي تنير طريق الفرد منا إلى غايته ، وتجعل إيماننا بفكرة العربية وحركتها السياسية وأهدافها إيماناً بصيراً مستنيراً تقود الشعوب العربية من الظلمات إلى النور ، ومن الجمود إلى الحركة ، ومن الاستكانة إلى الرفعة ، وتعلم الفرد والجماعات معنى الآية الكريمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . ولمثل هذا فليعمل العاملون !

أحمد رمزي

القنصل العام السابق بسوريا ولبنان

٢٦٠٠

ودار العلوم ؟ خبروني سألتكم بحق الاخاء عن ظلال أيامي فيها . سقى الله ظلالها سَوْب الغلوب ! خبروني، الارجل كريم، يحسن إلى هـذا البعيد النأى ، فيمر بالدار عند مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، فيصعد إلى الغرفة التي تطلّ من هنا على صحن المسجد النوّر المبارك ، ومن هناك على صحن المدرسة المزهر المشرق ، فيحيي عني هذه الغرفة ، فإني سكنتها عاماً ، كان لي عام دنيا ودين ، وفيها جددت طباعي وأفكاري وكونت نفسي .

ثم ليجل عني في هذه المدرسة في حدائقها ، في صحونها ، في ممراتها ودهاليزها ، ثم ليصعد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى تتصل بقبة المسجد ، وتشرف على تلك الحديقة العتيقة ، وتلك المقبرة المهجورة ، وعلى طريق الكاظمية ، فإن لي على هـذا السطح ذكريات ... وإنني إن أنس لا أنس يوم العيد ، وقد خلت المدرسة من ساكنيها ، فلم يبق فيها غيري ، فأوغلت في هذه السطوح ، وصعدت حتى انتهيت إلى أصل القبة ، ونظرت فإذا أنا على بحر من النخيل : تهتز قممه من تحتي كأنها الأمواج في اللجة الساكنة ، وتظهر في فُرَج النخيل طرق الفلاحين ، وقد خرجوا مع أطفالهم وأولادهم بثياب لها مثل لون الزهر ، ثم تختفي خلال الأشجار ، كشاعر سادر أو محب متغزل ، ذهب يناجي ذكريات الوصال ، ودجلة عند منعطف الصليخ تلوح بعظمتها وجلالها ، كأنها سماء من نور ركبت في الأرض ؛ وبغداد ، بلد الأساطير والأحلام ؛ يبدو طيفها على حاشية الأفق البعيد بقبابها ومآذنها ، كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة ، يقصها الأفق المشرق على الدنيا ، وإلى اليمين قباب الذهب من الكاظمية ، والقبة الخضراء التي ثوى تحتها رمس مُلك شابّ ، وشباب مليك ، حين ثوى غازي بن فيصل بن الحسين بن عليّ !

لقد لبثت مكاني حتى شملت الظلمة الكون ، وضوّأت المصابيح في شبابيك المنازل فنظرت ... إليها ، أنا الغريب المنفرد ، الذي يمضي عيده وحيداً على سطح المسجد ، لا رفيق له إلا ذكريات سعادة ولت تؤلمه وتحزّ في قلبه ذكراها ، وحبّ مات وليداً ، وفكرت في أمري لو اصابني مرض فلبثت هنا شهراً ، فمن ذا يصل إلي ؟ من يسأل عني ؟ وأي فؤاد يخفق من أجلي بعد أن سكت ذلك الفؤاد الذي كان خفاقاً بحبي ، فؤاد أمي ، إلى الأبد ؟

فنظرت إليها فهبطت أهلها إذ يغلقون أبوابهم على الشمل الجميع ، والأهل الحضور ، والأنس والسعادة .

ونزلت في طريق الحديقة العتيقة ، وإذا أنا أتعثر بحجر ، فنظرت إليه على شعاع يتحدر إليه من مصباح الشارع ، فإذا هو قبر متخلف من المقبرة التي كانت هناك في غابر الأزمان ، فامتلأت نفسي بصورة الموت ، ولم أعد ألمس في هذه الغصون المخضرة إلا الربيع الماضي الذي مات ، ولا أرى من الناس إلا قلوباً ميتة دفنت في صدور أصحابها ؛ ولا أجد تراب الأرض إلا ناساً كانوا مثلنا وماتوا ... فأكلت هذه الأشجار أجسامهم ، وشربت دماءهم ، فمنه كان زهرها الذي نشم عطره ، وغصنها الذي نأكل ثمره ... ولم أر الدنيا إلا موتاً في موت .

وأممت غرفتي وأنا غارق في بحر من الأفكار السود ، فسمعت المؤذن في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طيات الظلام ، إذ يحمل اسم الله منيراً مشرقاً ، فقمت إلى الصلاة ، فلما قضيت وخرج الناس ، رأيت المؤذن ينادي على عادته بذلك الصوت الممدود : الفاتحة ! ثم يغلق المسجد وينصرف ، وأبقى وحدي ، ليس في المسجد ولا في المدرسة غيري ، وبينهما باب من داخل ، فأعود إلى غرفتي ...

وما كاد يكتهل الليل ، حتى سمعت الصوت في المسجد كرة أخرى ، ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً واهياً ، في نغم حزين ، من لحن الصبا ، فنظرت من شباكي ، فإذا في أرض المسجد الذي اشتمل عليه الظلام ثلاثة مصابيح بترولية خافتة النور ، تكشف عن نفر من الناس ، لا يبدو منهم إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة فكأنهم الجنّ ، أو كأنه فلم مخيف من أفلام ألف ليلة ... ثم سمعت تكبيرات الجنازة ، فنزلت فرأيتهم يصلون على ميت في نعش ،

فسألت : من هذا ؟ قالوا : مؤذن المسجد !

فانصرفت لأدوّن في دفتري ماعرض لي ذلك اليوم من صور وخواطر ، ثم أضمت الدفتر ونسيت الخواطر والصور ... وأن في الدنيا موتاً ...

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم ، وإني على هذا أشتاقها وأشتهي أن ترجع لي أيامي التي مرت فيها . فيارحمة الله على أيامي في دار العلوم وعلى من بقي من أهلها السلام !

وإن أنس لا أنس (ليلة البلاط) ، ياليت ليلة البلاط تعود !

لقد رجعت أنا وأنور العشية من الأعظمية إلى بغداد ، فتركنا السيارات وجفونا الطريق الأعظم ، وسلكنا محجّة على ضفة دجلة فسرنا فيها ، وكانت تنكشف لنا تارة فنسلكها ، وتضل (طريقها ...) تارات ، فتتيه بين النخيل ، وكان النهر أبداً عن أيماننا ، يبدو حيناً بصفحته البيضاء المشرقة التي تشبه وعد الوصال ، يشرق للمحبّ في ليل الهجران ، والأمل البسام يلوح لليائس في غمرة القنوط ، ثم يحجبه عنا النخيل ويستره الظلام ، كما يخلف المحبوب بدلاله الوعد ، وتمحو الحياة بواقعها الأحلام ، وتطمس صور الأماني . وكان أنور يحدثني حديث ماضيه فيثير في نفسي عالماً من الذكر الأليمة ، كلما نزلت به في أعماق قلبي ، ودفنته في هوة النسيان ، وحسبته مات . انبعث فجأة ، كأنما ولد الساعة ، عالم فيه صور أبي وأمي وآمالي وحبي ، واستغرقنا في خواطرنا ، وغبنا عن حاضرنا ، فما نبهنا إلا جندي بحربته الممدودة إلى بطوننا وبندقيته الموجهة إلينا ، وصاح بنا : أن ارفعا أيديكما ؛ ففعلنا .

قال : ما أدخلكما حمى (بلاط الملك) ، وفيم أنذركما فلا تقفان ؟ لقد هممت أن أرميكما بالنار ! وكانت تلك هي الأوامر ، مابعد الانذار إلا النار ، فقلنا : نحن أديبان ، أرأيت أديباً نفع معه إنذار ، أو أفاد معه تخويف ، ثم إننا برمنا بالحياة ، لا نرى فيها إلا ماضياً لاسبيل إلى إرجاعه ، وأملا لا وصول إليه ، ولو أنت رميتنا لمننت علينا بميتة سهلة ، نرجو من بعدها ثواب الشهداء ، وإن الموت يا عسكري درجات ، وألوان بعضها أطيب من بعض ، وما نظنك سمعت بدعاء الأعرابي الذي سأل الله ميتة كميتة أبي خارجة ، لأن هذه الجفوة منك دلتنا على أنك لا تقرأ كتب الأدب . أفتحب أن تعرف كيف مات أبو خارجة حتى صار موته أمنيّة ؟

أكل حنيذاً ، وشرب نبيذاً ، ونام في الشمس ، فمات شبعان دفآن ريّان !

قال الجندي ، ولم يفهم منا شيئاً :

— يشنو إنتو يابه ؟

قلنا : نحن معلمون !

فضحك وأرخى سنان بندقيته ، وقال : معلمون صحيح ، أما غير مخبّلين ، (وغير هنا للتأكيد ومخبلين ، أي مجانين) ! وتركنا نمضي لأن المجنون لا يسأل ...

تلك هي ليلة البلاط ، وإني لا أذكرها إلا أسفت على هذه الميتة الحلوة التي فاتتني ، وخشيت ألا أتمكن من مثلها ، وأظن أنور آسفاً مثلي ، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعليم البنات الأدب ... أما حياتي أنا فليس فيها لذة تستطاب ، وليس فيها ألم يستكره . أعني أنني لست إنساناً يحيا ولكن (شيئاً) يعيش !

* * *

مالي كلّ هذه الليلة ذهني ، ولم يسعفني شيطاني ؟ مالي أكتب عن بغداد ، فلا أذكر من أيامها إلا هذا الحديث التافه ، وأيام بغداد ، مواسم للمجد وأعياد ، ولياليها فرحة الفؤاد ، وأسرّة للحب ومهاد ، وماضيها مآثر ومفاخر وأمجاد ؟

مالي لا أتحدث عن دجلة ، وياطول شوقي إليها ، وإلى زوارق المحبين وهي تمضي فيها حالمة سكرى ، والأغاني تتراقص على أمواجها ضاحكة مرحى ، والسمك المسقوف . خبروني ، ألا تزال مرفوعة سقوفه . مشتعلة ناره ، أم هوت من هول الحرب الدعائم وانطفأت النار ؟

مالي لا أناجي إخواني وتلاميذي الذين عشت دهراً من عمري بهم ولهم ، وأسألهم أيذكرون هذا المعلم ... أم قد مرّ في حياتهم مرور شخص (السينما) ثم تنقضي الرواية ، ويسدل الستار ، فكأنما لا شخص مرّ بهم ، ولا (فلم) عرض عليهم ؟

أما أنا فاشهدوا يا تلاميذي ويا إخواني أني ما نسيتكم . أأنسى نجدة وعلياً ونزاراً بن البطل الشهيد ، إلا إذا نسي الأب أولاده ؟ أأنسى الأخ الأكبر (بهجة) العراق ، وقد طالما قبست الجزل من فضله ، ورأيت الفذّ من نبله ؟ ما نسيت ، ولئن كبا بي القلم الليلة ، فسأعود إلى الحديث عن بغداد ، وما كل مرة يكبو الجواد .

وعلى إخواني وتلاميذي وبغداد وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته .

علي الطنطاوي

المدرس (سابقاً) في ثانويات بغداد والبصرة وكركوك